



إن الأمة تعيش فتناً ومحناً وتمحىصاً وتمر بأزمات كبار قد علمها القاصي والداني، وأحاط بخبرها الذكي والبلدي!

وعلى المسلم - وإن كان لا يملك إلا نفسه - واجب تجاه ذلك، أوله أن يستشعر المصائب، وأن يبذل في تحفيذه أو رفعه ما تيسر من الأسباب، ولو بالدعاء «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكت منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1]، وفي الحديث المتفق عليه: المؤمن للمؤمن كالبنيان[2]، وفي الحديث الآخر: المسلم أخو المسلم[3].

وهذه الأخوة تقتضي حققاً، ولا يكفى فيها بالدعوى، وكل هذا مقرر.

غير أن الناس في واقعهم بين غلة وجفاة:

- أما الجفاة فهم الذين لا يلتفتون لمصاب إخوانهم، ولا يبذلون في رفع الظلم والعدوان عنهم ما آتاهم الله ويسره لهم! إذ ليس المطلوب من كل الناس سواء، وهذا شأن الأوامر الشرعية كلها، فالواجب على كل نفس ما في وسعها تجاه كل مأمور أمرت به ومنكر رأته. وذلك يختلف؛ قد يعذر رجل بما قام في قلبه وحده، وآخر بكلمة أو دعوة، وثالث يأثم إن اقتصر على أمر القلب واللسان، إن كان ممن يملك فوق ذلك.

والجفاة عندهم تقصير في بعض ذلك أو كله، فلا استشعار لمصاب إخوانهم، وكأنهم من جسد غير الجسد الإسلامي الواحد، لا علاقة لهم ببنيانه، وقد يكون ثمت استشعار وحب وبغض، لكن معه تقصيرًا في البيان والبذل، وهو من جملة الجفاء.

- أما الغلة فيجعلون النازلة المعينة، أو الجراح القريبة، هي الأمر الشاغل، فكل الوسع يجب أن يبذل فيها، وكل الوقت ينبغي أن يصرف إليها، وكان الواجبات الشرعية وقفت عند تلك القضايا أو بعضها!

فثبتت طرفان: طرف لا يبذل وسعه في قضايا المسلمين وبإمكانه أن يبذل، وطرف يريد أن يبذل كل الوسع في قضية واحدة أو بعض قضايا وإن تعطلت واجبات أخرى! غير داخلة في دائرة اهتمامه.

الاعتدال أن يتبصر المسلم في واقعه وأن يعلم الواجبات تجاهه ثم يبذل في كل واجب منها ما يستطيعه من غير حرج ولا مشقة، ثم لا بأس بعد ذلك - إن هو قام بالقدر الواجب في الجملة - أن يقدم شيئاً أو يشتغل بأمر يرى أن بذلك فيه أنسف، وأن

قدرته عليه أكمل.

وفرغ عما تقدم، تثار حول العلوم الشرعية وأولية الاشتغال بها إشكالات حول مناسبتها في أوقات الأزمات، لاسيما أن ثمت أحكاماً شرعية تتعلق بأمور قل وجودها في هذا الوقت أو انعدمت، وربما أصبحت تحارب بأنظمة دولية وتُجرم.

وهنا يتساءل بعض الناس ما فائدة الحديث عنها؟

أليس الأولى أن نشتغل بما يمس الواقع؟

لماذا تشرحون حديث إباق العبد، أو أحكام الرق، وليس ثمت اليوم عبيد؟!

ألم يكن الأجدى أن يبذل هذا الوقت في موضوع أكثر فائدة للناس؟

وهذه التساؤلات تقع من طيبين، ولكن ينبغي أن يتقطن إلى أنها كذلك تقع من خباء جفا لا يعنيهم أمر إخوانهم المسلمين! بل لسان حال المسلمين منهم ما قال الأول:

كفاني الله شرك يا خليلي

فاما الخير منك فقد كفاني!

وارتب الحديث عنها في المسائل الثلاث الآتية:

أولاً: لا شك أن العناية بما يمس واقع الناس ويعتلق بحاجتهم اليومية أو الضرورية أو أمورهم الراهنة له أولية على غيره، وليس من الفقه أن تنزل بال المسلمين نازلة، فتقيم محااضرة في حكم بيع أمهات الأولاد مثلاً، والنبي صلى الله عليه وسلم أرشد الدعوة بتقديم الأهم، كما في حديث الصحيحين عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: **قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي فَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ, فَإِذَا جِئْتُمُهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهُدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ, فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكُمْ أَنَّكَ بِذَلِكَ, فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَواتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلِيلَةٍ, فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكُمْ أَنَّكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتَرُدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ, فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكُمْ أَنَّكَ بِذَلِكَ فَإِنَّكَ وَكَرَائِمٌ أَمْوَالِهِمْ, وَأَتَقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ, فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»** [4]، فكذلك ما تعلق بضرورات المسلمين أولى مما تعلق بحاجياتهم أو أمورهم التكميلية، فمن قلة الفقه والجفاء تقديم ما حقه التأخير، كما أن من قلة الفقه أن يكتفي الناس بالضروري ومع الإصرار على التوسيع فيه مع إغفال الحاجي! فلو جئت قوماً قد حقوا التوحيد لكن كان عندهم جهل بأحكام الصلاة فالفقه أن تبدأ معهم بتعليم أحكامها هذا إن كانوا محققين للتوحيد، والمقصود أن الأولويات تقدم بالنظر إلى أهميتها في نفسها، وبالنظر إلى حاجة الناس؛ فالمهم في نفسه قد تنزل مرتبته جراء تشعب الناس به وفقرهم إلى ما هو دونه؛ والداعية كالطبيب يقدم للمريض ما يحتاجه، لا ما هو أهتم بإطلاق، ولا ما يطلب المريض!

ثانياً: كما أن الجفاء ترك قضايا المسلمين الكبرى، وأمورهم الضرورية والاشتغال بما هو دونها، فإن من الغلو أن يجعل قضية منها أو بعض القضايا هي كل قضايانا وكأن الله عز وجل ما خلق الجن والإنس إلا للجرح الفلاني! بل الواجب الشرعي أن نقدم ما حقه التقديم، ونحفظ لما بعده مكانه لا أن نهمله أو نغفله بالكلية، وأشباهه من يفعل ذلك بصاحب دار جاءه ضيف كبير القدر في داره ومعه طائفة آخرون، فشرع في إكرامه وإهمال من دونه! فهذا فعل الساذج، أما الليبيب فيكرم كبير القدر بما يليق به، ولا يغفل في الوقت نفسه بقية ضيوفه بل لهم عليه حق واجب، بل يعلم فوق ذلك أن كبير القدر لا يرضي بإهمال صحبته. وبعض الناس باسم تقديم المهام وقعوا في شيء من الغلو أشبه بالحال التي ذكرنا فتراهم لا يغفلون فقط

الإكرام! بل يغمزون من اشتغل بتعليم الناس أمور دينهم، وبذل جهده في تربية الأجيال تربية علمية تخرج قادة علميين قادرين على حل إشكالات المجتمع وفقاً لما تأسس عندهم من أصول راسخة في أبواب العلوم، مع أن من يغمزونهم لا مطعن فيهم ولا مغنم إذا هم قاموا بواجب البيان في تلك المسائل الكبار، وبذلوا ما يمكنهم ولا يعنهم.

أما الغلة فهم كمن أكرم ضيفاً وأغفل ألفاً! والواجب الاعتدال والمهم هو ألا نغفل المهم، وأن يكون له من جهدها نصيب يناسب الحال والملابسات والظروف والقدرات، إذ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاه.

وهذا المعنى يستفاد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما المتقدم في بعث معاذ رضي الله عنه إلى اليمن فإنه قال: «فإن هم أجابوك لذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات»، فلم يأمره للانتقال إلى غيرهم ليعملهم المسألة الأولى، بل رعى للمسألة الثانية مكانها، وكذلك إن وجد من يقوم بالمسألة الأولى فعلى غيره أن يسد ما يليها ولا يكررها.

ثالثاً: القضايا الكبرى لا تعالج بإيقاف عجلة الحياة إلا من التوجّه نحوها! فهذا مما لا يمكن ولا يكون ولا يدعوه إليه رشيد، بل مع مصائب المسلمين فالناس يعيدون، ويتأجرون، ويتعاملون، وينجبون، ويتزوجون، ويعزون ويهنؤون.. وهلم جراً، وإنفاس الحياة بإيقاف كافة الأنشطة ظاهر الفساد لا يقول به عاقل، ولم تأت به شريعة وعلى كثرة الابتلاءات في الصدر الأول لم يعرف عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن صحابته إيقاف عيد، أو منع زواج، وتحريم التجارة! فضلاً عن منع الاستفتاءات والدروس إلا في النازلة! وهكذا قضايا المسلمين الكبرى اليوم وحاجاتهم الضرورية ينبغي للعالم أن يفرغ لها وقتاً، يجعل لها من جهده نصيبياً يناسب ما يستطيعه فيها، مراعياً واجباته الأخرى، فلا تتوقف عجلة الحياة عنده على النازلة، بل ينبغي أن يسير في برامجه العلمية، وعبادته، بل وحاجات من يعول، وهذا من الاعتدال الذي راعتة الشريعة بل فرضته، ولهذا تجد النبي صلى الله عليه وسلم يرد رجلاً قد تعين عليه الجهاد باكتتابه في الغزوة واستئثاره، ليلحق بأمرأته التي خرجت حاجة! كما في الصحيحين عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ، وَلَا تُسَافِرْنَ امْرَأَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا مَحْرَمٌ»، فقام رجل فقال يا رسول الله، اكتبت في غزوة كذا وكذا، وخرجت امرأتي حاجة، قال: «اذْهَبْ فَحُجْ مَعَ امْرَأَكَ» [5]، وفي حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - وهو في الصحيحين أيضاً يقول جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستأذنه في الجهاد فقال أحى والإداك». قال نعم. قال «فَفِيهِمَا فَجَاهَهُ» [6]، وأنذ لحديث العرس يوم الخندق في التردد على أهله، على ما هي من الحصار وإقبال الأحزاب [7]، وقد قال الله تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لَيَنْفِرُوا كَافَةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فُرْقَةٍ مِنْهُمْ طائفةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبه: 122].

والاليوم على الأمة أن تنفر إلى ثغور كثيرة تحتاج إلى العلم والدعوة والإغاثة جميعها يعاني شحاً، وفي كثير من أصقاع الأرض لم يقم المجموع فيها بالواجب الكفائي، بل لا أبالغ إن قلت: قل أن تجد مدينة فتقول: قد قام الناس بالواجب الكفائي فيها في مجال الدعوة والتعليم والإغاثة ونحو ذلك!

وعوداً على بدء المطلوب هو الاعتدال، لا تغفل الأهم بل قدمه ما استطعت، ولكن أيضاً لا تغفل المهم، ومن رأيته ينكر على عالم تدريسه العلم فهو أحد ثلاثة:

إما جاهل بحال العالم وشغله بقضايا المسلمين واهتمامه بها حسب طاقته.

وإما جاهل بطريق إصلاح الواقع وما ينبغي أن تكون عليه حال الأمة في الأزمات.

وإما عالم يعرف أن العالم الفلاني مقصراً، قد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فلم يعد له في المهام توجيه يذكر ولم

يعد له بها شغل يقدر له ويثنى.

وهذا وإن كان موجوداً إلا أن الأكثر هو التجني بأحد الجهلين السابقين من قبل بعض المتحمسين على الأفضل العاملين، وهؤلاء ينبغي نصحهم وإرشادهم.

أما المنافقون فحالهم مكشوفة مفضوحة يرون الناس قد أوغلوا في كل شيء! كتبوا في القصص والأخبار ترفاً، وأوغلو في الخيال العلمي، وفي أحاديث الخرافات سفهاً، وفي الفضول المسرحي، وفي التاريخ السحيق الذي يخرج الحديث فيه في أحياناً كثيرة إلى التخرصات والتkehنات، ولم يتركوا شيئاً أحقر من البعثة ولا أصغر من الذرة ولا أعظم من الشعري إلا وأفاضوا بالفضول فيه!

وكل ذلك ينظر إليه على أنه ثقافة، أو علم، أو فن، أو إبداع! فإذا تحدث فقيه في مسائل قد تحتاجها الأمة، أو تفسر بعض ماضيها قيل له اسكت! وشرعوا يصفونه بالألقاب: فقيه حيض ونفاس! أصحاب الأوراق والكتب الصفراء! فُشورى (يعتني بالقصور)! إلى غير ذلك من الألقاب.. وهؤلاء في الحقيقة مشكلتهم مع الدين لكنهم يتذمرون بشيء ليطعنوا في غيره خفية، ولهذا تجدهم في المقابل إذا تحدث الناس في قضايا الأمة الكبار غمزوا من وجه آخر فنعتهم بالثوريين غير العقلانيين، أو بالمتطفين الإرهابيين، على طريقة المنافقين الأولين اللمازين في الصدقات، كما في حديث أبي مسعود رضي الله عنه في الصحيحين قال: **لَمَّا نَزَّلْتُ آيَةَ الصِّدَّقَةِ كُنَّا نُحَارِّلُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ فَقَالُوا مُرَأَى! وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فَقَالُوا إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعٍ هَذَا! فَنَزَّلْتُ: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَوَّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِيرَ اللَّهِ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [79] [8]. [التبوة: 79]

وخير للمتحمس النبي! أن لا يفرح بنقد هؤلاء المنافقين لإخوانه، وموافقتهم له في رمي العلماء بالجهل؛ ولابد أنهم إن قالوا عنمن لم يرض مسلكهم اليوم: فقهاء حيض ونفاس، فسيقولون عنه غالباً: جماعات إرهابية! وقد فعلوا! فاعتبروا يا أولى الأ بصار!

[1] متفق عليه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، صحيح البخاري (6011)، ومسلم (2586).

[2] متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، صحيح البخاري (481)، ومسلم (2585).

[3] متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، صحيح البخاري (2442)، ومسلم (2580).

[4] صحيح البخاري (1496)، ومسلم (19).

[5] صحيح البخاري (3006)، ومسلم (1341).

[6] صحيح البخاري (3004)، ومسلم (2549).

[7] كما في حديث أبي سعيد الخدري عند مسلم (2236)، وفيه قوله: كان فيه فتى منا حديث عهد بعرس قال فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله.

[8] صحيح البخاري (1415)، ومسلم (1018).

المصادر: